دراسة الشعر الفلسفي عند المتصوفة في العصر العباسيّ

م.د. وروود وليد حمود الصراف
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات
wuroodw.alsarraf@uokufa.edu.iq

الملخص

الشعر الفلسفي عند المتصوفة قد انتعش ابان العصر العباسي في منتصف القرن الثالث الهجري مع انتشار الفكر الفلسفي ، وهناك العديد من الشعراء المتصوفة قد تمسكوا بكتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وتطرقوا إلى مواضيع التوبة ، وادارة الحقوق ، والحلال والحرام ، وكانوا يميلون إلى الزهد ومحاسبة النفس ، وإلى التقشف في الحياة ، وهناك شعراء عرفوا بفلسفة الحب ، اي حب الذات الالهية ، ولهفتهم لرؤية الله سبحانه وتعالى كاشفا عن عواطفهم الصادقة .

ولذا فإن شعراء الفلسفة المتصوفين استعملوا الكتابة الشعرية للتعبير عن تجاربهم العرفانية واحوالهم الذوقية ، ويعد الحب الالهي من اهم مرتكزات الفكر الصوفي ، و من اهم اغراض الشعر الصوفي ، ويمكن ان يقال : الشعر الفلسفي الصوفي ينبع من مشاعر واحاسيس وعاطفة.

Abstract

Studyinge philosophical poetry of the Sufis in the Abbasid era

The philosophical poetry of the Sufis flourished during the Abbasid era in the middle of the third century AH with the spread of philosophical thought, and there are many Sufi poets who adhered to the Book of God and the Sunnah of the Messenger of God (may God's prayers and peace be upon him and his family) and touched on the issues of repentance, the management of rights, the permissible and the forbidden, And they tended to asceticism and self-accountability, and to austerity in life, and there are poets known for the philosophy of love, that is, the love of the divine self, and their eagerness to see God Almighty revealing their sincere emotions. Therefore, the Sufi poets of philosophy used poetic writing to express their mystical experiences and tasteful conditions, and divine love is considered one of the most important foundations of Sufi thought, as well as one of the most important purposes of Sufi poetry, and it can be said that Sufi philosophical poetry stems from feelings, feelings and passion

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي وعلى اله وصحبه اجمعين .

الشعر الصوفي له خصوصية مميزة وصلة التصوف الذي هو منهج في المعرفة يهدف إلى معرفة الله سبحانه وتعالى . وهذه المعرفة لا يتسنى للصوفي الوصول إليها الا بعد رحلة شاقة لكي يصل إلى عدد من

المراتب والمقامات والترقي بتلك المراتب بسلسلة من الرياضات والمجاهدات لترويض النفس من الشهوات والملذات ، وعندما يكون الصوفي العارف شاعرا ، فإنه يتأثر ويتفاعل معها ، وعليه تلتقي رؤيته الصوفية مع تجربته الشعرية ، والتصوف يعد منهج معرفة ، وتجربة عرفانية غايتها الفناء في المطلق .

يتناول البحث جانب التصوف والشعر وتأثير لغة القرآن الكريم في اختيار الشاعر الصوفي إلى لغته الشعرية وعلاقة الشعر بالتصوف

التصوف

يعد التصوف قطاعا رئيسا من قطاعات الفكر الاسلامي العربي .

لقد برزت كلمة الصوفي أو الصوفية وكثرت استعمالها في القرن الثاني الهجري ، وأول من اطلقت عليه كلمة صوفي هو ابو هاشم الكوفي المتوفي ١٥٠ هـ (نيكلسون ، ١٩٩٦ م : ٣) .

التصوف في اللغة

عرف التصوف : "تشتق كلمة التصوف من الفعل صوّف جعله متصوفا ، وتصوّف صار صوفيا ، أي تخلق بأخلاق الصوفية " (لويس معلوف ، ٢٠٠٠ م : ٤٤١) ، وقيل ايضا : " صاف الكبش صوفا وصووفا ، فهو صاف وأصوف وصائف وصوف كفرح فهو صوف عكتف صوفاني بالضم إذ كثر صوفه ، والصوفانة بالضم بغلة زغباء قصيرة وصاف السهم الهدف يصوفه ويصيف عدل ونحنا وجهه مال وأصاف الله عني شره اماله " (الفيروز ابادي : ١٦١/٣١) .

وقيل إن التصوف هو العبادة والتنسك ، وقيل ايضا : " آل صفوان كانوا يخدمون الكعبة وينسكون ولعل الصوفية نسبة إليهم أو تشبيها بهم في التعبد والتنسك " (الزبيدي ، د.ت : ٤٢/١٤) .

التصوف في الاصطلاح

من اين جاءت كلمة التصوف هناك عدة اراء فيها منها أن التصوف مشتق من اهل الصفة ، ويعدون من المهاجرين من الصحابة ، وقيل انهم سمو صوفية لقرب اوصافهم من اوصاف اهل الصفة ، في زمن الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) (الكلاباذري ، ١٩٩٦ م : ٢٩).

فكلمة الصوفي مشتقة من الصفاء ، ولأن الصوفي رجل صافاه الله وقيل هي من الصف لأن بعض المسلمين كانوا يذهبون مبكرين إلى الصلاة فيجلسون في الصف الأول دائما (فروخ ، د.ت : ٣٧٧) .

وهناك من يقول على التصوف انها جاءت من " مشتقة من لفظة يونانية الاصل هي سوفيا ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقيوا بذلك نسبة إلى الحكمة ، لأنهم كانوا يبحثون فيما

يقولونه أو يكونه بحثا فلسفيا ، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة الا بعد ترجمة كتب اليونان إلى العربية ودخول لغة الفلسفة فيها "(زيدان ، ١٩٧٣ م : ٣٢٢/٢) .

وذكره ابن خلدون أن كلمة التصوف اشتقت من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الشباب إلى لبس الصوف (ابن خلدون ، ٢٠٠٤ م : ٣٩٨) .

وقيل : " لأن لبس الصوف كان من دأب الانبياء (عليهم السلام) والصديقين وشعار المساكين ". (الطوسي ، ١٩٦٠ م : ٣١) .

ومن خلال جملة من التعاريف نجد أن التصوف يدعو إلى ترك وتعطيل العمل والانقطاع إلى العبادة فهو ينقطع صاحبه عن العمل ويتوجه بقلبه وروحه للعبادة .

فهو يعبد الله تعالى من اجل ذاته ليس لغرض اخر .

ويذكر ابن الجوزي عن التصوف والفرق بينهما وبين الزهد حيث يقول : " الصوفية من جملة الزهاد ... إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال ، وتوسمّوا بسمات ، فاحتجينا إلى افرادهم بالذكر ، والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي" (ابي الفرج ، ٢٠٠١ م : ١٦٣) .

" والزهد هو أول حركات التصوف في الاسلام ، وقد انتشرت حركة الزهد في عصر الرسول)صلى الله عليه واله وسلم) وبعده ، وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك ، وفرق بين التصوف والزهد ، فالتصوف زهد في الدنيا لكسب رضا الله ، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة ، والتصوف دخول في جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته ، والزهد دخول في مجال التقوى خوفا من عذاب الله ونقمته وجبروته ، والتصوف فلسفة روحية في الاسلام والزهد منهج عملي من مناهج بعض المسلمين وله نظائر في الديانات القديمة ..... " (الخفاجي ، د.ت : ٧) .

وفي زمن القرن الثالث الهجري يعّد دور انتقال من الزهد إلى التصوف بمعناه الحقيقي ، فكان هناك تمييز بين الذي يسمى الصوفي صوفيا أو عارفا احيانا اخرى والزاهد زاهدا . ومنهم من عدّ الزهد هو يمر بمرحلة من مراحل الطريق التي تصله إلى تصفية النفس والترقي في معارج الحياة الروحية (القشيري ، د.ت : ٥٧٠) .

ولذا لابد أن نقول إن التصوف في بدء امره كان مقصورا على الحياة الزهدية ، التي قامت على التأمل والاعتزال .

لذا فإن نمو التصوف وازدهاره في القرنيين الثالث والرابع الهجريين ، وقد تأسس مذاهبه وكثرة مشايخه ، والصوفية اخذوا ينظمون انفسهم بطوائف ، وطرق منظمة ، وهناك دلائل على أن المتصوفة لم يقتنعوا بحياة الزهد والعزلة عن الناس بل إلى اكثر من ذلك اصبح شيخا ومرشدا وظهرت العديد من الفرق الصوفية منها الملامتية نسبة إلى اهل الملامة والطيغورية والخرازية ، وغيرها (نيكلسون ، ١٩٥٦ م : ٢٠).

والتصوف مرتبط بالإسلام " واذن فالتصوف اسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره وهو الرأي العلمي الصحيح " (ضيف ، د.ت : ١٠٧) .

واشار الشاعر ابو بكر الشبلي عن لفظة التصوف على انه علم من العلوم حيث يقول :

علمُ التَصوُّفِ عِلمٌ لا نفـادَ له عِـلمٌ سـنـيٌ سـمـاويٌ رُبـوبـيٌ

فيه الفوائد للألبابِ يعرفـها أهلُ الجزالةِ والصنعُ الخصوصيُ (الشبلي ، ١٩٦٧ م : ١٣٢) .

ومن تتبع شعر الصوفي نجد أنه لا يخلو بعض نصوصه من عناصر زهدية لارتباط الوثيق بين التصوف والزهد .

شعراء الصوفية ولغتهم

استمد الشعراء الصوفية لغتهم من القرآن الكريم وعدوه المصدر الرئيس الذي انتقى منها الصوفية مصطلحاتهم وتعبيراتهم .

قال ماسنيون إن البذور الحقيقية للتصوف في القرآن الكريم ، وتعد هذه البذور لتنميته في غير حاجة إلى اي نوع من الغذاء ، ولكل بيئة دينية تتوفر لتقوى ابنائها على الاخلاص ، ولذا يصلح أن يظهر فيها روح التصوّف ، ولذا لا يعد التصوف مختصر على عنصر أو لغة أو أمة ، لكونه مظهر روحي لا يحده مثل هذه الحدود المادية ، فمن القرآن يرّدد الفرد تلاوته ويقوم

بفرائضه ويتأمل في آياته ، لذا انبثق التصوف الاسلامي وتطوراته (ماسنيون ، ١٩٤٥ م:٥٠)

" وللصوفية ايضا تخصيص من طبقات اهل العلم باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة ، وأخبار عن رسول الله ﷺ مروية " (الطوسي ، ١٩٦٠ م : ٣١) .

وكان للقران الكريم الاثر في تكوين اللغة الصوفية فله الاثر في استفادة الشعراء المتصوفة من قصص الانبياء التي ذكرت في القرآن الكريم وجعل الانبياء رمز من رموزهم منها النبي ايوب رمز للصبر ، والنبي يعقوب رمز للشوق والحزن .

ولو عدينا الادب الصوفي فهو غني في شعره ويعد شعره من اغنى ضروب الشعر وارقاها ، وغني في فلسفته ، وهو سلس واضح وأن كان فيه بعض الاحيان غموض وتعد فلسفته من اعمق انواع الفلسفة الإلهية وحين نقرأ معانيه تكون رقيقة وخيال الشاعر يكون رائع يسبح في عالم كله جمال ، ويقدس الشعراء فيه الحب ، ولابد أن يكون الانسان مسلحا بكثير من الاذواق والمواجير والحالات التي يعتقدها المتصوفون حتى يسايرهم في الهمّ (امين ، د.ت : ١٧٣/٤ ـ ١٧٤) .

ولو تتبعا الفاظ هؤلاء الشعراء نجد الكثير من الابيات تحوي على مفردات يعود اصلها إلى القرآن الكريم ، منها صفات الله سبحانه وتعالى أو احد اسمائه . حيث ذكر الشاعر محمود الوراق (ت : ٢٢٥ هـ) ، حيث يقول :

هي المقادير تجري في اعنتها فأصبر فليس لها صبرٌ على حال (الوراق ، ١٩٩١ م : ٩٨) .

الفلسفة والمتصوفة

لو رجعنا إلى الفكر الصوفي وإلى السلوكيات الصوفية كما ذكره ابن عربي (ت : ٦٣٨ هـ /١٢٠٤ م) على محاولة التغلب على الشهوات منها شهوة الجنس والطعام والحديث عن نظرية الفناء والتجسيد ، وحدة الوجود ، والتسامح وغيرها من العقائد والافكار الدينية التي اقتبست من ثقافات اخرى اي مما اقتبسه متصوفة الاسلام عن الثقافات والديانات التي تمت مقاربة علاقاتها مع فلسفات اخرى ، وقد أنبنى عليها الفكر الديني الفلسفي القديم (الكحلاوي ، ٢٠٠٨ م : ١٢١) .

التصوف الفلسفي قد ارتبط بالمؤثرات الخارجية بعيدا عن القرآن والسنة لقد تأثر الشعراء الصوفية في الاثر والآراء الافلاطونية المحدثة ومنهم ذو النون المصري فهو ما اشار إليه نيكلسون : حيث قال " إن ذا النون قد نهل من الثقافة اليونانية ، فضلا عن أن المعاني التي تكلم فيها هي من كتابات يونانية " (نيكلسون ، ١٩٥٦ م : ١٦) .

وقد ذكر المستشرقون حول بعض الشعراء الذين تأثروا بفلسفة الغرب ومنهم الشاعر ذي النون المصري ، وإنه يعبّر عن عقيدة اتحاد النفسي بالله بطريقة تشبه التعاليم الأفلاطونية المحدثة إلى حد كبير (اوليري ، ١٩٧٢ م : ١٦٤) .

وهناك الكثير من افكار الفلاسفة المتصوفة من هذه الافكار هي : ـ

فلسفة الوجودية

إن موضوع وجود الله سبحانه وتعالى هو موضوع نقاش في فلسفة الدين وبمصطلحات فلسفية فقد طرقت مسألة وجود الله من عدمه منذ القدم من قبل فلاسفة ورجال وعلماء دين على الصعيد الفلسفي .

ولقد اشار شعراء المتصوفة إلى هذا الموضوع من خلال ابياتهم الشعرية منهم الشاعر المتصوف الحلاج بقوله :

فيكَ مَعنى يَدعو النُفوسَ إلَيكا وَدَليلٌ يـــــدُلُّ مِنـــكَ عَلَـــــــيكا

لِيَ قَلبٌ لَـــــــــــــــهُ إلَيكَ عُيونٌ ناظِراتٌ وَكُلُّـــــــــــــــــهُ في يَدَيكا (الحلاج ، ١٩٩٨ م : ٣٠ ـ ٣١) .

دليل على وجود الله سبحانه وتعالى هو الله وحده وكذلك يدلنا إليه العقل والقلب الذي مشبع بالأيمان .

ويشير الحلاج في ابيات اخرى إلى القلب بأنه لا يستطيع أن يدرك جزيئات الاشياء حيث يقول :

مَن رامَهُ بِالعَقلِ مُستَرشِداً أُسَرّحُهُ في حَيـــــرَةٍ يَلهو

قَد شابَ بِالتَدليسِ أَسرارُهُ يَقولُ في حَيــرَتِهِ هَل هو(السابق : ٩٣) .

فلسفة الاخلاق

والصوفية بفلسفتهم في الاخلاق وكانوا مثالا نادرا للشخصية الخلقية ، وذلك لانهم سلكوا طريق الله تعالى ، وتعد الاخلاق عنصر مهم من عناصر التصوف ، وكانوا يهتمون بها وهذا كله مرتبط ارتباط قوي بفلسفة الاخلاق وهي انقطاع الصوفي عن النفس وحب الدنيا ويبدلها بحب الله تعالى ، وكل ما يملك هو لله .

فلسفة الاخلاق هذه لا تكتسب الا بعد مجاهدة النفس ومحاربة رغباتهم وترويض نفوسهم على تحمل العنف والمشقة .

فإن فلسفتهم في الاخلاق قد صورها الشعراء ، منها الصبر فهو خلق من اخلاق الصوفية .

يقول الشاعر الصوفي ابراهيم الخواص (ت : ٢٩١ هـ) عن الصبر :

صَبَرْتُ على بَعْضِ الأَذَىَ خَوفَ كُلِّه والْزَمْتُ نَفْسِي صَبـــــرَهَا فاسْتَقَرَّتِ

وَجَرَّعْتُهَا المـــــكْرُوهَ حَتَّى تَدَرَّبَتْ وَلَوْ حُمِّـــــــــلَتْهُ جُمــْلَةً لاشْمَأَزَّتِ

فَيَا رُبَّ عِـــــــــزٍ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بالتَّـــــــذَلُلِ عَـــــزَّتِ

ومَا العِزُّ إلاَّ خَيْفَةُ الله وَحْـــــــــدَهُ وَمَنْ خَـــــافَ مِـنْهُ خَافَـــهُ مَا أَقَلَّتِ

(الطوسي ، ١٩٦٠ م : ٣٢٠).

ويقول الشاعر الصوفي سهل بن عبد الله (ت : ٢٨٣ هـ) في الصبر .

اتذكر ساعة العقت فيها وانت وليدها عسلا وصبرا

لتعلم ان هذا الدهر يمسي ويصبح طعمه حلوا ومرا

فلا يملاك محبوب سرورا وإن وافاك مكروه فصبرا

وان فارقت في دنياك ذنبا فقل في اثره يا رب غفرا (السابق : ٣٢٣) .

فلسفة الصبر اهم خطوات نحو سلوك الطريق فهو يصبر على ترويض نفسه وحرمانها من الملذات الحسية ويستمع بالملذات المعنوية .

فلسفة الخلوة

ومن فلسفة المتصوفة هي الخلوة فهي من دلائل المحبة ، فالخلوة والابتعاد عن الناس أو مخالطتهم لذلك قيل :" خير الدنيا والأخرة في الخلوة والقلة ، وشرهما في الكثرة والاختلاط " (القشيري ، د.ت : ١٨٣) .

يقول الغزالي " كان ذلك حال رسول الله ﷺ ، حين اقبل إلى غار حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمدا عشق ربه " (الغزالي ، د.ت : ٥٧) .

ومن خلال هذه الفلسفة فقد اشار شعراء المتصوفة إلى الخلوة والابتعاد عن الناس وذلك للتعبد لله وحده والابتعاد عن ملذات الدنيا ، ومن الشعراء الذين ذكروا الخلوة هو الشاعر يحيى بن معاذ الرازي ، حيث يقول :

نفس المحب إلى الحبيب تطلع وفـــؤاده مـــن حبه يتقطع
عز الحبيب إذا خـــــلا في ليله بحبيبه يشـــكو إليه ويضرع
ويقوم في المحراب يشكو بثه والقلب منه إلى المحبة ينزع) الاصفهاني ، ١٩٩٦ م(10/65 :

وله ابيات اخرى في ترك الدنيا والابتعاد عنها ، والدعوة إلى الاعتراض عنها بالعبادة وترك الملذات ، حيث يقول :

سلم على الخـــلق وارحل نحو مولاكـــــا عساك في الحشر تعطى مـــــــا تـــؤمله

واهجر على الصدق والإخـــــلاص دنياكا ويكـــــــــرم الله ذو الآلاء مثـــــــــواكا

(السابق : ٦٦/١٠)

ويبين الغزالي طريقة الخلوة فيقول: " إن الشيخ يلزم المريد زاوية ينفرد بها، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، ويلقنه ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه ، فيجلس

ويقول مثلاً: الله، الله ، أو: سبحان الله، سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات. فلا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تمحي من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة في القلب، وحاضرة معه

غالبة علية، قد فرغ عن كل ما سواه، لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره "(الغزالي ، د.ت: ٥٨)

والخلوة في حياة المتصوفة اهمية كبرى وهي تخدم الجانب العملي والذوقي معا فهي تهذيب النفس وترويضها على الامتناع وصرف النفس عن الاشياء التي اعتاد لها ومقاومة اهوائها وهدم كبريائها ، ومن اراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ، فإن هذا الزمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة (القشيري ، د.ت: ٥٥)

ومن هنا نشير إلى الخلوة التي ينفرد بها المؤمن المتصوف ليتفرغ لذكر الله تعالى منها تلاوة القرآن ومحاسبة نفسه ، أو التفكير في خلق السموات والارض وبعدها الوصول إلى مراتب الاحسان وإلى افاق المعرفة.

وبجانب هذه الآراء الفلسفية ، إن العزلة عن الناس يفيد الابداع ، وعدم الاختلاط بالناس ، فالفلسفة الحقيقية تنشأ في ظل السكون والهدوء.

فلسفة العشق الالهي

إن لحب والعشق الالهي مظاهر متعددة واتجاهات مختلفة ، فهو متجها نحو إله أو معبود ، فحب الله ينبغي أن يكون الأول لا يتقدمه حب.

,

والواقع أن مفهوم الحب الإلهي لم يكن إبداعاً صوفيّاً من حيث المبدأ ، فقد ورد مفهوم الحب الإلهي أول ما ورد في القرآن الكريم ، حيث خاطب الله عباده المخلصين بقوله أنه " يحبهم ويحبّونه "(سورة المائدة ، اية رقم 54)

أفرد شعراء الصوفية مساحات واسعة من اشعارهم لموضوع الحب الإلهي باعتباره من أجلّ أنواع الشعر التي يتوجب على المؤمن إتباعها إذا أراد أن يحوز على حب الله.

ذكر الشاعر يحيى بن معاذ الرازي حبه لله في العديد من اشعاره منها قوله :

طَـــــــــرَبُ الْحُبِّ عَلَى الْحُبِّ مَعَ الْحُبِّ يَـــــــــــــــــــــــدُومُ

عَجَبًا لِمَـــــــــــــــــــــنْ رَأَيْنَاهُ عَلَى الْحُـــــــــــــــــــــبِّ يَـــلُومُ

حَـــــــــــــــــوْلَ حُـبِّ اللَّهِ مَا عِشْتُ مَعَ الشَّوْقِ أَحُـــــــــــومُ

وَبِهِ أَقْـــــــــــــــــــعُدُ مَـــــــــــــا عِشْتُ حَيَـــاتِي وَأَقُـــــــــــــومُ (محمد ، ١٩٨٧ م : ٦٤ ـ ٦٥)

وله ابيات يذكر بها حبه لله سبحانه ، حيث يقول :

رضيت بسيدي عوضا وأنسا مـــــــن الأشياء لا أبغي سواه

فيا شوقا إلى مـــــــــلك يراني على ما كنت فيـــــــــــه ولا أراه

خلا يستمطر النجم العطايا فيعطى منه أكثر مـــــــــا رجاه [35]

وهناك العديد من الشعراء ذكروا حب الاله والعشق الالهي منهم الشاعر الصوفي سمنون بن حمزة ، وقيل اسمه سمنون المحب ,[36] حيث يقول:

"وكـــــان قلبي خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ

فلما دعـــــــــــا قلبي هواك أجابه فلستُ أراه عن فنـــــانك يبـــرحُ

رُميت ببين منك إن كنت كاذبـــاً إذا كنت في الدنيا بغيرك أفرح

وإن كان شيءٌ في البلاد بأسـرها إذا غبت عـن عيني بعيني يلمحُ

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل فلستُ أرى قلبي لغيرك يصـــلحُ[37]

وله ابيات اخرى ، قائلا فيها:

تريد مني اختبار سري وقــد علمت المراد مني

وليس لي في ســـواك حظ فكيفما شئت فاختبرني[38]

ذكرت الشاعرة الصوفية رابعة العدوية (ت : ١٨٠ هـ) ، عن حبها لله سبحانه وتعالى ، حيث تقول :

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعُـدتي ومـــــــرادي

أنت روح الفــؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوق كزادي

أنت لولاك يا حيـــاتي وأُنسي ما تشتتُ في فســـيح البلاد

كم بـدت مِنة وكم لك عندي من عطاءٍ ونعمةٍ وأيـــــادي

حُبــك الآن بُغيتي ونعيمي وجلاءُ لعين قلبي الصادي[39]

فقد عبرت الشاعرة عن حياتها الواقعية وشدة حبها لله سبحانه وتعالى ، فقد ذكرت بأن الله هو روح الفؤاد وهذه الروح هي التي تحرك جسد الانسان ، وهذا التعلق بالله سبحانه تابع من قبلها ومتصل بالذات الالهية .

ولم يكن الامر فقط إلى الحب الالهي بل تعداه إلى حد الجنون الالهي فقد ذكر الشاعر يحيى بن معاذ قائلا :

أموت بدائي لا أصـيب دوائـــــيا ولا فرجا ممـــــا أرى من بلائيا

يقولون بحبي جنّ من بعد صحةٍ ولا يعلم العـــذال ما في حشائيا

إذا كان داء العبــد حب مليكه فمن دونـــــــــه يرجو طبيبا مداويا

ذروني وشأني لا تزيدون كربتي وخلّوا عناني نحـــو مولى المواليا

الا فاهجروني وارغبوا في قطيعتي ولا تكشــفوا عمّا يجـــــن فؤاديا

كلوني إلى المولى وخلّوا ملامتي لأنس بالمولى على كلّ ما بيا [40]

اتهم الشاعر بهذه الابيات بأنه مجنون ولكن لا يعرفون مدى حبه إلى الله فلو علموا مدى حبه إلى الله سبحانه لكفوا السنتهم عنه ، فجسد المتصوفة ينشغلون بحبهم إلى الله وقد اذهب الحب عقولهم فعبروا عن ذلك الحب يتحرر نفوسهم من رق الشهوات وقلوبهم تركت من الضغائن والاحقاد وامتلئت بالمحبة الإلهية .

ونجد أن الشاعر الصوفي ولعه بحب الله سبحانه وتعالى حيث يروى عن ذي النون المصري وهو يذكر ابياته وهو على فراش الموت ، حيث يقول :

أَموتُ ومـــــــا ماتَتْ إليك صَبابَتي ولا قضَّيتُ مِن صِدْق حُبك أَوطاري

مُنايَ المنى كلُّ المنى أنتَ لي مُنًى وأَنْتَ الغِنى كلُّ الغِنى عِنْد أقتـــاري

وأنتَ مَدَى سُؤْلي وغـــايةُ رَغْبَتِي ومَوضِعُ آمالي ومَكْنُونُ اضمـــــاري

تَحمَّلَ قلبي فيـــــــــك ما لا أَبُثُّه وَإِنْ طالَ سُقْمِي فيكَ أو طال إِضْراري

وبَيْنَ ضُلوعي منكَ مَالَكَ قَـــدْ بدا ولَمْ يَبْدُ بـــــــــــاديه لأهلٍ ولا جارِ

وبي مِنكَ في الأحشاءِ داء مُخامِر فقد هَـــــدَّ مِنِّي الركنَ وانْبَثَّ إسْراري[41]

هنا اشار الشاعر من خلال فلسفته في الحياة أن العبد يلاقي ربه بعد الموت ، فمحبة العبد إلى ربه تقتضي الرضا بقضائه من صحة أو مرض أو من غنى وهو راضي في طاعة الله فهو يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه .

وهذه الرؤية والفلسفة في نفس المجال ومحبة الله في كل شيء واطاعته منها قول الحلاج :

الصُـــبُّ رَبِّ مُـــحِـــبُّ نَـوالُهُ مِنـكَ عُجـبُ

عَذابُهُ عِـنـدي عَذبٌ وَبُـعـدُهُ عَـنـكَ قُـربُ

وَأَنـتَ عِـندي كَروحي بَـل أَنـتَ مِنها أَحَبُّ

وَأَنـت لِلعَيـــنِ عِينٌ وَأَنـتَ لِلقَـــلبِ قَـــلبُ

حَسبي مِنَ الحُبِّ أَنّي لَمـــا تُـــحِـبّ أَحِـبُّ [42]

هنا نجد فلسفة الشاعر هي قربه لله سبحانه وتعالى فهو يصب حال الصب وعذاباته فهو يجد في العذابات عذوبة ، فهو يهوى تلك الآلام .

فألفاظ شعراء الصوفية تحمل في طياتها الحب الالهي ، فلذا كان شعرهم وادبهم علما مستقلا بذاته .

ولذا فإن التصوف فلسفة روحية تعمل على تصفية النفس بالمجاهدة والانتقال من حال إلى حال وإلى وصوله إلى مقام الوجد والفناء . ومن هنا يجب التنويه إلى فلسفة الفناء وهي من اهم الامور التي يذكرها المتصوف هي الموت والفناء وعدم ديمومة الانسان .

فلسفة الفناء

من اهم افكار الفلاسفة المتصوفة هو الفناء ، والموت ومن ابرز الشعراء الذين ذكروا عن الفناء هو الشاعر الصوفي ابو علي الروذباري حيث يقول :

روحي إليك بكلها قد أجمعت لو ان فيك هلاكها ما أقلعت
تبكي إليك بكلها عن كلـــــها حتى يقال من البكاء تقطعت
فانظر إليها نظرة بتـــــــعطف فلطالما متعتـــــــــــها فتمتعت[43]

ذكر الموت عند شعراء المتصوفة منهم الامام الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) ، حيث يقول :

ومتعبُ العيسَ مرتاحاً إلى بـــــلدِ والموتُ يطلُبُه مـــــــن ذَلِكَ البـــلدِ

وضـــــــــاحك والمنايا فـــوقَ هامته لو كانَ يعلمُ غيباً ماتَ مـــــــن كمدِ

من كانَ لَمْ يُؤْتَ عِلْماً في بقاءِ غدٍ ماذا تفـــــــــــــكرهُ في رزقِ بعد غدِ(44)

الخاتمة

الهدف من هذه الدراسة إبراز الخصوصية التي تميز الشعر الصوفي من غيره في إطار الشعر العربي .

نجد أن فلسفة الرؤية عند الصوفي قد تأسست الوجه الآخر وقد تكونت رؤية تتبنى وجهة نظر مستقلة ، فالدين يعّد المؤسس الحقيقي لصنعة الشاعر وهي علاقة الشاعر الصوفي بالله عز وجل .
اتخذت الصوفية الآيات القرآنية اساسا لمذهبهم في الحب الالهي ومن نظره في هذه الآيات وفلسفتها ، فألفاظ شعراء الصوفية تحمل في طياتها الحب الالهي ، فلذا كان شعرهم وادبهم علما مستقلا بذاته .
ويعد التصوف قطاعا رئيسا من قطاعات الفكر الاسلامي العربي ، ومفهوم الحب الالهي في اشعار الشعراء الصوفية ، ينصرف إلى حب العبد لربه . فهو حب خالص ، فالشعر يرتبط بموضوع حقيقي هو معرفة الله سبحانه ومحبته على الحقيقة .
اما الوجود من حيث الرؤية الصوفية وهم يريدون بذلك وجود الله تعالى ، وقد توضح ذلك في شعر الحب الالهي ، اذن فعلاقة الصوفي العارف بالوجود هي في حقيقتها علاقته بالله سبحانه وتعالى .
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اكرم الخلق محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبة الميامين. د

المصادر والمراجع

ـ الادب في التراث الصوفي ، محمد بن عبد المنعم الخفاجي ، مكتبة غريب ، القاهرة .
ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، مطبعة الكويت ، ط٢ ، (د.ت) .
ـ تأريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٧٣ م .
ـ تأريخ الفكر العربي ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ـ لبنان .
ـ التعرف لمذهب اهل التصوف ، ابو بكر محمد الكلاباذي (ت : ٣٨٤ هـ) ، تحقيق : محمد امين النوادي ، مطبعة دار الاتحاد العربية ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٩ م .
ـ تلبيس ابليس ، الامام ابي الفرج عبد الرحمن (ت : ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م .
ـ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، احمد بن عبد الله الاصفهاني ابو نعيم (ت : ٤٣٠ هـ) ، دار الفكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
ـ دراسة عن المنحى الشخصي لحياة حالة الحلاج الشهيد الصوفي في الاسلام ، لوي ماسنيون ، مجلة (الله حيّ) العدد ٤ ، السنة ١٩٤٥ م ، مادة التصوف ، دائرة المعارف الاسلامية .

ــ ديوان الحلاج ويليه أخباره وطواسينه ، الحلاج ، جمعه وقدم له : سعدي ضناوي ، دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
ـ ديوان الشبلي ، ابو بكر الشبلي ، جعفر بن يوسف ، جمعه وحققه وعلق على حواشيه : الدكتور كامل مصطفى الشيبي ، المكتبة الاسلامية ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .
ـ ديوان محمود الوراق ، محمود بن حسن الوراق (ت : ٢٢٥ هـ) ، جمع ودراسة وتحقيق : أ .د وليد قصاب ، مؤسسة الفنون ، ط١ ، عجمان ــ الامارات ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
ـ الرسالة القشيرية ، عبد الكريم بن هوازن القشيري ، تحقيق : عبد الكريم العطار ، د.ط ، مكتبة ابي حنيفة ، دمشق ، د.ت .
ــ الروض الفائق في المواعظ والرقائق ، شعيب بن عبد الله الحريفيش ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٦٨ هـ .
ــ الزهد والتصوف في الشعر العربي ، سراج الدين محمد ، دار الراتب الجامعية ، ط١ ، بيروت ــ لبنان .
ــ طبقات الصوفية ، ابو عبد الرحمن السلمي ، تحقيق : نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي ، ط٣ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
ــ ظهر الاسلام ، احمد امين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، القاهرة ، (د.ت) .
ـ العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة .
ــ الفكر العربي ومركزه في التأريخ ، دي ساسي اوليري ، ترجمة : اسماعيل البيطار ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
ـ في التصوف الاسلامي وتأريخه ، رينولد الين نيكلسون ، ترجمة : ابو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ م .
ـ القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي (ت : ٨١٧ هـ) ، دار العلم للجميع ، بيروت ــ لبنان .
ـ اللمع ، ابو نصر السراج الطوسي ، تحقيق : عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي ، دار الكتب الحديثة بمصر ، والمثنى ببغداد ، ١٩٦٠ م .
ــ مقاربات وبحوث ، التصوف المقارن ، محمد الكحلاوي ، بيروت ، ٢٠٠٨ م .
ـ مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، بن خلدون ابو زيد ، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م .
ـ المنجد في اللغة والاعلام ، لويس معلوف ، دار الشرق ، بيروت ــ لبنان ، ط٨ ، ٢٠٠٠ م . ٣ ــ المنقذ من الضلال ، ابو حامد الغزالي (ت : ٥٠٥ هـ) ، دار الشرق ، بيروت ـ لبنان ، د.ت
ــ نفحات الانس من حضرات القدس ، تأليف الملا نور الدين عبد الرحمن بن احمد الجامي (ت : ٨٩٨ هـ) ، تحقيق : محمد اديب الجادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان .